شرح قصيدة عمرو بن كلثوم في الفخر

تُعدُّ قصيدة عمر وبن كلثوم التي قالها في الفخر من بين أبرز القصائد الشعرية التي كتبها العرب في الجاهلية، وفيما يأتي سوف نقوم بتسليط الضوء على بعض أبيات هذه القصيدة وشرحها:

- **أَلا هُبّي بِصَحنِكِ فَاصبَحينا / / / وَلا تُبقي خُمورَ الأَندَرينا**
مُشَعشَعَةً كَأَنَّ الحُصَّ فيه / / / إذا ما الماءُ خالَطَها سَخينا
ففي قبل التفرق يا ظعينا / / / نخبرك اليقين وتخبرينا
بيوم كريهةٍ ضربًا وطعنًا / / / أقر به مواليك العيونا
ففي نسألك هل أحدثت صرمًا / / / لوشك البين أم خنت الأمينا

يبدأ الشاعر عمرو بن كلثوم قصيدته هذه بأنه يطلب الصبوح، والصبوح هو كأس الخمر، ومن عادة الجاهليين أن يطلبوا الخمر ويذكروه في مطالع قصائدهم، والأندرين هو نوع من أنواع الخمر، ثم توجه الشاعر في حديثه إلى المرأة التي تركب الهودج وهي مرتحلة، يطلب منها أن تتوقف قليلًا لكي يخبرها بالقصة كاملة، تلك القصة التي حدثت في يوم صعب اشتدت فيه الضرب والطعن، ففرح المنتصرون وقرّت به عيونهم، ثم يقول لها قفي لكي نوجه إليك السؤال: هل صار هذا الألم بسبب الفراق أم الخيانة؟

- **أبا هند فلا تعجل علينا / / / وأنظرنا نخبرك اليقينا**
بأنا نورد الرايات بيضًا / / / ونصدرهن حمرًا قد روينا
وأيام لنا غر طوال / / / عصينا الملك فيها أن ندينا
تركنا الخيل عاكفة عليه / / / مقلدة أعنتها صفونا
متى ننقل إلى قوم رحانا / / / يكونوا في اللقاء لنا طحينا
ورثنا المجد قد علمت معد / / / نطاعن دونه حتى يبينا

في هذه الأبيات يتحدث الشاعر عمرو بن كلثوم إلى ملك الحيرة عمرو بن هند بعد أن قتله بسيفه، فيطلب منه ألّا يتعجل، وأن ينتظر الخبر اليقين، وهنا يبدأ الشاعر بالفخر؛ فيقول: إن راياتهم في الحرب تدخل بيضاء وتخرج حمراء من شدة القتل والدم المسفوك، وهذه كناية عن البأس والقوة في المعارك، ثم يقول إنّ أيامهم طويلة معروفة من قبل الأعداء، فهم من قهروا وهزموا الملوك في القتال، وكم أنّهم تركوا خيولهم عاكفة على القتال وكيف أنّهم ورثوا هذا المجد وهذه القوة وهذا البأس في الطعن والضرب من أجدادهم السادة الأقوياء، وقد علمت العرب بأسهم في الحرب وشدتهم وشجاعتهم.

- **ونحن إذا عماد الحي خرت / / / على الأحفاض نمنع من يلينا**
ندافع عنهم الأعداء قدمًا / / / ونحمل عنهم ما حملونا
نطاعن ما تراخى الناس عنا / / / ونضرب بالسيوف إذا غشينا
نشق بها رؤوس القوم شقًّا / / / ونخليها الرقاب فيختلينا
تخال جماجم الأبطال فيها / / / وسوقًا بالأماعز يرتمينا

يواصل الشاعر في هذه الأبيات الفخر بنفسه وبقومه وأبناء قبيلته، فيقول إنّه إذا وضعت الخيام على الأمتعة، فإن قومه يحمون جيرانهم من هذه المصيبة، وإنهم قوم يحفظون حق الجار، فيدافعون عن جيرانهم ويحملون عنهم كل الأعباء التي حملوهم إياها، ثم يقول إن قومه يقاتلون الأبطال إذا ابتعد الناس عنهم، وإنهم يضربون بالسيوف ضرب الأشداء إذا غشيتهم مصيبة أو نائبة، ثم يقول إن قومه من شدة بأسهم يشقون الرؤوس شقًّا ويقطعون الرقاب قطعًا فتتطاير، ثم يقول إنّ جماجم الرجال الشجعان الأبطال تشبه أحمال الإبل التي تسقط وترتمي من على ظهر الإبل.

- **وقد علم القبائل من معدٍّ / / / إذا قببٌ بأبطحها بنينا**
بأنَّا العاصمون بكل كحلٍ / / / وأنا الباذلون لمجتدينا
وأنَّا المنعمون إذا قدرنا / / / وأنا المهلكون إذا أتينا
وأنا الشاربون الماء صفوًا / / / ويشرب غيرنا كدرًا وطينا

يقول الشاعر في هذه الأبيات: لقد علمت قبائل العرب من معد ما إذا بُنيت القبب في مكان اسمه أبطح، علمت تلك القبائل إنّ قومه يعصمون ويدافعون عن جيرانهم إذا أظهروا لهم الطاعة، أما إذا أظهروا العدوان فإنهم مهلكوهم لا محالة، وأنهم كرام منعمون على ضيوفهم المسالمين، وأنهم أصحاب بأس إذا أتى عليهم العدو، وأنّهم الذين يشربون الماء صافيًا زلالًا في حين يشرب الآخرون الماء غير صاف ولا نقي، وهذا أيضًا من باب الفخر والتعالي.

- **لنا الدنيا ومن أمسى عليها / / / ونبطش حين نبطش قادرينا**
  ألا لا يجهلن أحد علينا / / / فنجهل فوق جهل الجاهلينا
  إذا بلغ الفطام لنا صبي / / / تخر له الجبابر ساجدينا
  ملأنا البر حتى ضاق عنا / / / وظهر البرح نملؤه سفينا

يواصل الشاعر في هذه الأبيات الفخر، فيقول: إن هذه الدنيا كلها لقومه، وأنهم إذا بطشوا في يوم الكريهة والقتال فإنهم يبطشون عن قوة وقدرة، ثم يوجه رسالة لجميع الأعداء مفادها: لا تجهلوا علينا فإننا إذا جهلنا فإن جهلنا أعظم من جهلكم، وإن أطفالنا إذا بلغوا الفطام خافت منهم الملوك العظام، ثم يختم بالفخر بكثرة قومه فيقول: إن من كثرة أعداد قومه ضاقت عنهم الأرض بما رحبت، وإنهم قادرون على ملء البحر بالسفن لكثرة عددهم وعتادهم.